زفاف ملكة القلوب وبلهلمينا الهولندية

للأستاذ محمد لطفي جمعة

أخي الأستاذ صاحب الرسالة :

تفضلت فطلبت إليّ أن أكتب فصلاً يتصل بزفاف أحد ملوك الغرب بمناسبة الأفراح الفذة النادرة التي تقام في القاهرة لقران الملك الصالح السعيد فاروق الأول ، فصادف تفضلك هوى في نفسي لأنني أشعر نحو شخص جلالته بحب وتقدير لا يعدلهما إلا ولائي لعرشه واستبشاري وتفاؤلي بعهده . وأعتقد أن عاطفتك نحو جلالته إن لم ترد على عاطفتي في هـذا المضمار فهي تساويها لأن هذا الملك الشاب أثّر أول ما أثّر في قلوب المثقفين المهذبين أمثالك ، ولذا رأيتَ أن تقف عدداً من رسالتك أو معظمه على مشاركة الأسرة والأمة أفراحهما ، ونعمت الفكرة الملهمة التي ستلقى قبولاً ورضى من قرائك كافة في سائر أنحاء العالم العربي .

* * *

وأول ما خطر ببالي زفاف ملكة هولاندا وبلهلمينا وزوجها الأمير ألبرت وقد شهدته بنفسي إذ كنت في سياحة في تلك البلاد العجيبة[1] التي هي أقرب إلى القطر المصري بوديانها وخضرتها ومزارعها الناضرة وأخلاق أهلها الوادعين ، وكانت الأميرة وبلهلمينا نفسها تدعى « ملكة القلوب » لما حباها الله من الجمال والجلال ورقة الحاشية ، فكانت محبوبة من شعبها وإن نسب الحاسدون إليها شيئاً من الكبر والخيلاء وزعموا أنهما زالا مع الزمن بعد أن أحسنت القيام على حكومتها في رفق ولطف سياسة ، وأصبحت بصيرة بوجوه التدبير والإدارة ، خبيرة بتصريف الأمور ، حتى كتب « ڤان كيكم » أحد وزرائها عقيب زفافها يقول : « إن ملكتنا أعقل أهل المملكة » ووافقه على ذلك من رافقه الوزراء من كان لا يزال يرقب الملكة عن كثب ويدرس أحوالها وينظر إلى مستقبلها في اسطرلاب الحوادث المغيبة .

(١) تسمى هولاندا مصر أوروبا لأنها تضارعها في الخصب والزراعة .وتزيد عليها أن لها مستعمرات كبيرة في الشرق من بقايا أيام قوتها وهي تنتج الكاكاو والأرز والشاي وأنواع العطارة واليخور .

كان البرنس ألبرت خطيب الملكة من صفوة أشراف الطراز الأقدم ، وكان قد ورث ثروة طائلة عن آبائه واتخذ لنفسه معلمين من الانجليز بعد أن نال إجازات من جامعتي برلين واكسفورد ، وآوى إلى ضياعه التي يملكها في هولاندا فغرس بستاناً على نمط جديد ، وابتنى لنفسه قصراً على خطة من بنات فكره ، وجعل ينفق في سبيل العناية بالمثوى وتعهـد البستان وتنظيمه ما شاء الجمال وحسن الذوق ، حتى استنبت أزهاراً نابغة من الخزامى والورد الأزرق

وكان يعلم أن الملكة الشابة تحبهما وتختارهما وتفضلهما على غيرهما من الأزهار فأهدى إلى جلالتها كل ما أخرجه البستان من الورد الأزرق الغض والخزامى ، فأصبح من أقرب الأمراء إلى البلاط ، وقبلت الملكة ووالدتها دعوته إلى حفلة شاي أنيقة أقامها في عيد ميلادها في قصره ، وكانت الملكة الوالدة قد آمت[1] من زوجها وكسرت شبابها على تربية ابنتها «ويلهلمينا» وتثقيفها وإعدادها للعرش إذ كانت ولية العهد والوارثة الوحيدة بعد أبيها وفي تلك الحفلة ظهر البرنس البرت أجمل مظهر وأبدعه وأروعه وكان فتى رشيق القد ممشوق القامة يختال في حُلة عسكرية فائقة . ولما علم بدنو موكب الملكتين (الوالدة والجالسة على العرش وهي التي زفت إليه بعد قليل) امتطى صهوة جواد سابح ينهب الأرض وراح يستقبل موكب المركبة الملكية ، ولم تكن السيارات قد ملأت العالم كما هي الآن ، فوقع من قلب الملكة الشابة خير موقع ، ورنت إليه بعين الرضى والسرور حتى أنه أثناء الحفلة أوعز لأمه الأميرة بياتريس أن تلمح إلى الملكة الوالدة لتجس نبضها في الخطبة فانتهزت الأميرة فرصة الرضى وفاتحتها ، فابتسمت وقالت : « إن في أمور الدولة ما يشغلنا عن استعجال المتوقع ، وفي انتظار الفرص ما يصرفنا عن استدراج البعيد » ثم أسرت لا بنتها ما أسرت ،

(١) آمت : تأيمت من زوجها ومكثت زماناً لا تتزوج

فتهلل وجه الملكة الشابة التي ما زالت ترنو إلى الأمير وتخالسه النظر في إعجاب وحياء . وفي الواقع أن الأمير كان خير من يصلح للملكة على الرغم من إقبال الأميرات الأجنبيات عليه ، مبالغتهن في إظهار ميولهن وأمانيهن بأن تكون واحدة منهن عروساً له . ولكنه كان عنهن منصرفاً لا يكاد يكترث لهن ، فأوّلن ذلك بأنه لا بد أن تكون لقلبه سيدة استأثرت باحتلاله وامتلاكه والتربع على عرشه . وكن في حديثهن صادقات

وكذلك كانت فئة كبيرة من الأمراء يعللون أنفسهم بحظوة القرب من الملكة الشابة والارتباط ببيتها المالك برابطة المصاهرة والنسب ، ولكن والدتها ووزراءها والقيمين عليها كانوا يفضلون أميراً من خلاصة الشعب وسلالته كما فعل جلالة مليكنا المحبوب أعزه الله

وكانت ويلهلمينا الملكة الشابة في السابعة عشرة من عمرها . كان يضيء محياها الجميل عينان زرقاوان براقتان كأنهما نبعان من ينابيع ماء الحياة ، ومن العجب أن ترى جذوة النار في زرقة البحر ! ولها من شعرها الأصفر البراق ضفائر يضل النظر في استحسان دقتها وغزارتها ، وقد صدق من وصفها بأنها تمثال فاتن من صنع الاغريق بقي مكنوناً في صميم صدر الدهر حتى كشفت عنه الطبيعة المنعمة ، وأظهرته العناية الملهمة ، فبدا ملكة على الأفئدة قبل أن تكون صاحبته ملكة على العرش ! ! وكانت وحيدة أمها ، وولية العهد ، وصاحبة التاج المرموق ، الذي يهيمن على ستين مليوناً من البشر في شرق آسيا الجنوبي ، غير خمسة ملايين من أهل بلادها الأصلاء [1] وهي على جانب عظيم من الثقافة والفنى ومكارم الأخلاق وكرم النفس والوداعة والرحمة ، على عكس ما قال الحاسدون ، فكانت أمها وأقاربها ورجال حكومتها وأهل البلاط يبالغون في ترفيهها وتدليلها . وكان ينتظر من وراء ذلك وبسببه أن يكون لها على أهلها وحاشيتها وخدمها ، وكل من لابسها وجالسها ، فرط جرأة وتسحب ؛ ولكن الأمر كان على العكس فقد كانت وادعة متواضعة ، شديدة الحياء والإيمان والتوقير لكل كبير ، جمة الحنين لذكرى أبيها الذي مات وتركها في المهد صبية ، وكان يتمنى أن يسهر على تنشئتها فيشهد زفافها ، ولكن توفاه الموت قبل أن يدرك غايته . وقد اختلفوا في البائنة التي قبضها (البرنس كونسورت) أي الصهر الملكي الذي أسعده الحظ بزواجها ، فقيل مليون كورون ذهباً ، وقيل مليونان . ولكن الصحيح أنه قبض ثلاثة ملايين وتسلم زمام إحدى الجزائر المملوكة للتاج بغير شريك وهي تدر خيرات كبرى من الزرع والضرع والكنوز

وبعد قليل من تلك المقابلة صار الأمير بمكانة الزوج المنتظر ولم تمض بضعة أشهر حتى تم الزفاف في مدينة لاهاي (ذي هاج) عاصمة هولاندا . وكان ذلك في صيف عام ١٩٠٦ . وقد قضى العروسان شهر العسل على شاطئ سكفيننجن [1] وهي ضاحية الاستجمام والاستجمام تبعد عن العاصمة بضعة أميال . وكان عقد الزواج في هيكل القصر . ومن أبدع مظاهر زينته أولئك الفتيات القرويات ذوات الفتنة الضاحكة والسذاجة المستملحة وسحر البساطة المستعذبة اللواتي اشتهرن في أنحاء أوربا بجمالهن وعفافهن وميلهن للمداعبة البريئة . وقد رغبت الملكة الشابة أن يشتركن في زفافها ، لشدة حبها لشعبها وعطفها على رعاياها ولا سيما من كان منهن في سنها ومن جنسها اللطيف .

فكنت ترى بجانب جورج الخامس (وكان ولي عهد بريطانيا لأن الملك إدوارد السابع ورث العرش عن والدته الملكة فكتوريا) بثيابه الرسمية المرصعة بالجواهر والأوسمة الرفيعة ، والسيف المحلى بالذهب والحجارة الكريمة ، والحمائل المسجدية من المخمل الثمين وقد وضع على رأسه خوذة من الذهب الخالص وزانت وجهه لحية شقراء ، وليوبولد الثاني وهو الآخر شيخ هم أبيض الشعر وردى الوجنتين أزرق العينين ، وقد أبى إلا أن يلبس ثياباً هولاندية

(١) ومعنى هذا بلغة الاستعمار أن لكل هولاندي من رعاياها اثني عشر رجلا من الاندونسيين الذين نرى أشباههم في معاهد العلم بالقاهرة وأندونسيا مجموعة جزائر وحواضر من أغنى بلاد الشرق وأخصبها وقد اخترع الهولنديون طائرات سريعة للوصل بين العاصمة والمستعمرات النائية .

(١) من أجل وأروع شواطىء الدنيا وأجل من أوستند وأطهر وبها فندق مشيد من الحديد المموه بلون براق ورماله ذهبية هينة المنحدر لينة الملمس وهو على مقربة من لاهاي كرمل الاسكندرية

مبالغة منـه فى التقرب الذى يقتضيه حسن الجوار وانفرد بين الملاك بهدية من تحف الكونجو ، وهى تماثيل من الأبنوس والعاج مُنزَّلة بالذهب تمثل آلهة وفرساناً وغزلاناً وأيائل وفيلة وطيوراً من أجل وأروع ماوقعت عليه العين . وكان ليوپولد الثانى يملك ولاية الكونجو الحرة ملك السيد المطلق لاتشاركه فيها حكومة

وكان ليوپولد الثـانى بقدر قسوته على رعاياه الإفريقيين ذا حنان وشفقة على رعاياه الأوربيين ، وكان يعطف على جارته ملـكة هولاندا لشبابها ، ويرى أن يفرط فى مجاملتها والحلول فى نظرها محل والدها الذى كان من أصدقائه الحميمين

وكانت من المدعوات الإمبراطورة أوچينى بجلالة قدرها وعبرة شيخوختها ، أتت من لندن مستندة إلى ذراع دوق كونت وقد اتشحت ثياباً بيضاء موشاة « بدنتلة » بروكسيل ، قدرت بضعة ملايين من الفرنكات ، ووضعت على رأسها توجاً من الزمرد الأخضر المتلألئ على شعر جبينها الأبيض ، وزينت صدرها «بمنياتير» صورة مصغرة لولدها الأوحد (نابليون الرابع) الذى اغتاله المقاتلون فى زولولاند وهو يحارب متطوعاً تحت راية الإنجليز بعد أن فقد ووالداه عرش فرنسا عقيب حرب السبعين

وقد أهدت الإمبراطورة إلى العروس حلياً وعقوداً من خزانة كنوزها ، وإلى العُرْس (پرنس البرت) سيفاً من سيوف ناپوليون بونابرت . وأرسلت جمهورية فرنسا هيئة شرف حربية ومدنية من الوزراء والسفراء والنواب وقد لبسوا الثياب الملـكية وشارة الجمهورية (شريط مثلث الألوان) وحملوا على صدورهم نياشين الجمهورية ووسام (زايدرزى) وهو أرفع وسام هولاندى ، وأرسلت مستعمرات هولاندا فى الشرق الأقصى (جزيرة جاوى وأندنوسيا) وفوداً من سلاطينها وأمرائها ، وقد زانوا الاحتفال بثيابهم الشرقية الفضفاضة وعمائمهم المرصعة بالجواهر ، وكان أجلهم وأظهرهم غنى ووقاراً السلطان محمود بن تبنى حليف هولاندا وصاحب عرش جزيرة بيهالو — هوى ، وكان حاكماً شرقياً مسلماً شديد الشكيمة واسع الحيلة ، لم تستطع واحدة من دول الاستعمار إخضاعه ، فحالفته محالفة الند للند ؛ وكان يزين نحره وصدره بجواهر لا تقدر بمال ، وأهدى إلى العروسين تحفاً قيمة منها سيوف هندية ولوحات منقوشة ومرصعة ، وأقداح من الذهب للشاى وصناديق من العاج لصيانة الحلى

وكان هذا السلطان الشرقى يسير فى مكان ظاهر من الموكب وحوله بقية الأمراء من وطنه . وكفاهم فضلاً أنهم سافروا فى البر والبحر أربعين يوماً ليشتركوا فى المهرجان قبل اختراع الطائرات .

وكانت تحمل أذيال الملـكة العروس ، وهى من الفراء الموشاة بالذهب والدر المنضد ، فتيات وأطفال كاللؤلؤ المنثور ، نشأوا فى الهواء الطلق تحت ظلال أشجار البلوط ورضعن ألبان أمهات صحيحات الأبدان قويات البنية فكانوا وكن زينة الموكب . ولا مراء فى أن لكل أميرة أو قرينة وزير أو عقيلة سياسى مشاركة فى الاحتفال أن تبتسم من سلامة الفطرة التى كانت متجلية فى وجوه الهولانديات ، لأن العزلة والحرية والصحـة الشاملة استنبتت ونمّت قبل الأوان فى قلوبهن عواطف ونزعات وأهواء وشهوات لا تحسها ولا تدركها فتيات أوروبا الغربية . فكنت ترى بعض الأميرات والوصيفات وسيدات الشرف يضحكن فى خفر ضحكاً بريئاً لا يؤثر فى بساطة الجمال الهولاندى وجليل محامده التي لولاها ما ظهر في تاريخ تلك البلاد (منذ الاحتلال فى عهـد فيليب الثانى) مثقال ذرة من العظمة الانسانية[1]

ولمـا كانت الملـكة احتياجية المذهب (پروتستنت) وكان الأمير كاثوليكياً ، فقد عقد العقد مرتين . والتى خطبة الزواج بالهولاندية والانجليزية والألمانية والفرنسية فان كروب متزنجر كبير أساقفة لاهاي أمام الهيكل الذى شهد زواج والدة الملـكة وجدتها وحفلة إعلان استقلال (نيدرلاندز أو بيياس Bays - Bas (الأرض الواطئة) من حكم اسبانيا الذميم

وقد ذرفت الملـكة الوالدة دمعتين من دموع الفرح والذكرى لفراق زوجها وهو والد العروس ، وكانت تتمنى أن يكون على قيد الحياة ليقدمها لعرسها ، وقد حل محله الملك الشيخ ليوپولد الثانى لأن له من الحظوة والزلفى والدالة والوجاهة عنـد ملوك

(١) ألف أحد مؤرخى الانجليز كتاباً في خمسة مجلدات عن تاريخ هولاندا وعظمتها وانحدارها وما وقع لها من الحروب مع فرنسا وانجلترا وانتعاشها ومن أروع صفحه خطبة البرنجو مستى وهو يسلم خامسة الملك للاسبان

أوروبا منزلة رفيعة وشأناً عظيماً . وكان الأمراء الشرقيون على غاية السرور، ولم يحسوا شيئاً من التجانف والتجافي اللذين يلقونهما في بلاد الشرق من الحكام الهولنديين والانجليز ، ما عدا السلطان محمود فقد كان آية في الجد والوقار كأنه لا يخلو من التفكير والشجون على فرط اكتراث الملوك واحتفالهم بشأنه ، ولكنه ممن لا تفتنهم مظاهر الأبهة ولا تأخذ بألبابهم خفخفة الحياة الدنيا

وكان الشعب مشاركا في الأفراح ليلاً ونهاراً ، ولم تبق شيخة أو كهلة أو فتاة في بيتها ، وكن يلهجن بذكر العروسين ويفضن في شرح حالها وأمرها حتى أصبحا مجال البحث وموضع الحديث في كل شارع وطريق وزقاق ومحفل

ومن أساطير ذلك الزفاف الملكي أن الملكة العروس دست على خطيبها فتاة ذات حسن رائع من وصيفاتها وقالت لها : « اذهبي وانظري ألبرت خطيبي واخصيه فحصاً ثم عودي فخبريني أي أمري هو ، وصفيه لي وانعتي خلاله ومزاياه وشمائله وسجاياه »

ونسي واضع الأسطورة أو واضعتها أن الملكة إنما خطبت عرشها على عينها وتخيرته بنفسها وأحبته للوهلة الأولى ، ولكن ما الحيلة في أخلاق الشعوب وخصوبة أخيلة النساء وثرثرتهن حتى فيما ليس لهن به من علم ؟ وحتى لو كن من أهل الشمال الأوربي البعيدات القاصيات النائيات عن الشرق وأساطيره . ولكن المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان من شمال القطب حيث يقطن الإسكيمو إلى جنوب أرض النار (تيراد يلفويجو) !

وما أنس لا أنس الزينات التي قامت على قدم وساق في البر والبحر ، فقد أمرت الملكة ألا يخرج صائد ولا باحث عن رزقه بين الأمواج خلال أسبوع الزفاف ، وأجرت على الفقراء والعائلين أرزاقاً أغنتهم عن خوض غمار البحار في سبيل القوت والصيد فحشدوا سفائنهم ومراكبهم وزوارقهم وزينوها بالأعلام والمصابيح ، وأقاموا مراقص شعبية تسمى بالهولاندية كيرمس أو (دعكة) يشربون فيها الجمة والجين اللاذع ، ويختالون في سراويلات ملونة ويحتذون أحذية من الخشب المنحوت ، وهم بين كهل وفتى يراقصون الفتيات على أنغام الموسيقى الهادئة ذات الحنين الشجي ؛ ولا يدري مقدار ما يُجمل أولئك الفتيات البحريات من أهل ساحل هولاندا من فتنة السذاجة المستملحة وسحر البساطة المستعذبة إلا من رآهن رأى العين . وقد كان هذا الزفاف في عرفهن طارئاً عظيماً وحادثاً جليلاً ، وقد اتخذن من التحلي والتزين له واقعة وتاريخاً وذكرى خالدة . وقد صورت الصحف مناظر الموكب والأفراح والمراقص ، وما أزال أذكر صورة بالألوان البهيجة تمثل امرأة عانساً في الأربعين من العمر دهنت وجهها وزججت حاجبيها لترقص مع شيخ بحار من صائدي الحيتان وقد اصطنع لنفسه لحية تحيط بذقنه وعارضيه دون أن تدنو شعرة واحدة من شفتيه ووجنتيه ، واتخذ على رأسه قلنسوة خضراء ذات صنع عجيب ووضع أعجب ، وفي فمه غليون ضخم قصبته من خشب القرو ، وخزانة الطباق فيه ويسمونها (الفرن) من القيشاني

أما الشوارع في يوم الزفاف وليلته فكانت تموج بمئات الألوف من أهل البلاد والسائحين والمصورين والصحفيين وأقاموا متاحف ومعارض لمتاجر البلاد ومنتجاتها من خيرات البر والبحر . ومن متاحف تلك الفترة مجموعة فريدة من تصاوير رمبرانت الهولندي ومؤسس تلك المدرسة العريقة في إتقان الألوان ومحاكاة الطبيعة في درس علم التشريح ، وقد يبلغ ثمن بعضها مئات الألوف من الجنيهات

(من ذكريات قديمة) محمد لطفي جمعه

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

في حوالي ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربي منذ نشأته إلى اليوم

في صورة قوية تحليلية رائعة

ثمنه عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التأليف ومن سائر المكاتب